

## امراة متمرده

### د. سعاد الصباح

رفضت في شجاعة وتمرد أن  
أحيا أيامي كما يحلو للغير العيش  
وفق قواعد البروتوكول. وأن أتكلم  
على سجية اللسان لا كما يرسمه  
معجم الخليفة.

د. سعاد الصباح.. تلك الشبيخة الكويتية التي قالت في نصوصها الشعرية «فتافيت امرأة» ما لم تقله كل مؤانء الحداثة في شعرنا العربي المعاصر.. والحداثة هي أن تتواصل مع العصر وأن تواصل ما تحجم به النفس ويصهل به القلم لأبناء العصر بلغتهم لا بلغة القرن العاشر أو القرن الخامس والعشرين.. هذا ما فعلته.. فليس هناك شاعرة عارضا جيلها كسعاد الصباح، وما من شاعرة قرأها جيلها بكثافة مثل سعاد الصباح.. وما من شاعرة عبّرت عن جيلها في شعرها كسعاد الصباح.

في هذا الإطار من الشيء وضده.. ومن الحالة ونقيضها تظل صورة الشاعرة سعاد الصباح سوية واضحة ومعبرة وبريئة صادقة في الإبداع وبين ضلوع العاشقين في الوجد..

سعاد الصباح شاعرة استثنائية في شجاعتها وتمردا ورفضها.. استثنائية في طموحها المشروع لأن تحيا أيامها كما يحلو لها العيش لا وفق ما تقرره قواعد البروتوكول.. وأن تتكلم على سجية اللسان لا كما يرسمه معجم الخليفة..

استثنائية في قرارها الحازم بالخروج من عصر الحريم والدخول إلى عصر العلم وتحديدًا على الاقتصاد الذي هو جوهر العلوم قديمها وحديثها مثلما هو في جوهر النظم في مكتبها بالطابق العاشر من بناية الخطوط الجوية الكويتية حيث تتولى سعاد الصباح بجدارة مهام رجال الأعمال.

وإذا كان الشعر العربي قد حافظ على نقاء عذريته على مر العصور بالقياس إلى الفجور والتهتك اللذين عرفتهما طقوس العشق عند الأوروبيين في حقب مختلفة.. وحاول الغرب الأوربي نفسه وصم العشق العربي

بما ليس فيه من فجور وتهتك.. فمن هنا نهض شعراء العرب والأدباء العرب من رواة وقاصين.. بهذه المهمة بدءا بامرئ القيس وعنترة ومرورا بعمر بن أبى ربيعة وابن الملوح وصولا إلى سعاد الصباح التى نهضت بمهمة التأريخ للحب وسن قوانينه فقالت فى نصها الشعرى: «أعلى شجرة فى العالم»

عندما كنت طفلة  
كنت أتصور أن الشجرة  
هى أعلى مكان فى العالم  
وعندما أصبحت امرأة  
وتسلقت على كتفيك  
عرفت أنك أكثر ارتفاعا من كل الشجر  
وأن النوم بين ذراعيك لذيد لذيد  
كالنوم تحت ضوء القمر  
وتحت عنوان «التوقيت النسائي» تقول:  
لا يوجد توقيت شتوى لمشاعرى  
ولا توقيت صيفى لأشواقى  
إن ساعات العالم كله  
تضرب فى وقت واحد  
عندما يحين موعدى معك  
وتحت عنوان «ضربة شمس» تقول:  
يقولون لى فى سويسرا  
البسى ثياباً صوفية سميقة

كى لا تصابى بضربة برد  
أطعتهم.. وتدثرت بألف قبعة  
وألف كنزة صوف  
ولكنى رغم كل ما لحفت به  
جسدى..

نسيت أن أحضن قلبى  
فأصبت بضربة حب  
الحب هو انقلاب فى كيمياء الجسد  
ورفض شجاع لروتين الأشياء  
وسلطة البيولوجيا



وسعاد الصباح امرأة استثنائية تخلت باختيارها عن التاج والصولجان  
وآثرت العلم والشعر فخانت بهما قوانين الأنثى.. قالت:  
مثل جميع نساء الأرض  
مغازلة امرأة  
قد كان بوسعى  
أن أحتسى القهوة فى دفء فراشى  
وأمارس ثرثرتى فى الهاتفف  
دون شعور بالأيام والساعات  
قد كان بوسعى أن أتجمل.. أن أتكحل  
أن أتدلك..

أن أتحمص تحت الشمس  
وأرقص فوق الموج ككل الحوريات  
قد كان بوسعى  
أن أتحلى بالفيروز وبالياقوت  
وأن أتثنى كالملكات  
قد كان بوسعى ألا أفعل شيئاً  
ألا أقرأ شيئاً  
أن أتفرغ للأضواء.. وللأزياء.. وللرحلات..  
قد كان بوسعى  
ألا أرفض  
أن لا أغضب  
أن لا أخرج في وجه المأساة  
قد كان بوسعى  
أن أبتلع الدمع  
وأن أبتلع القمع  
وأن أتأقلم مثل جميع المسجونات  
قد كان بوسعى  
أن أتجنب أسئلة التاريخ  
وأهرب من تعذيب الذات  
قد كان بوسعى  
أن أتجنب آهة المحزونين

وصرخة كل المسجونين  
وثورة آلاف الأموات  
لكنى خنت قوانين الأنثى  
واخترت مواجهة الظلمات



في النص الشعري «وصل السيف إلى الحلق»  
من يقرأ النص يستشعر أن كارثة ما آتية لا ريب في ذلك.. ويبصر  
تفاصيل ما حل بالفعل بالكويت وبغداد..  
قالت:

وصل السيف إلى الحلق  
وصل السل إلى العظم  
ما زال لدينا شعراء يكذبون  
ويقولون على الأوراق ما لا يفعلون  
هذه الثورة أو النبوءة.. هذه الصيحة.. هذا الشعر.. هذه العرابة.. لم  
نقرأ لشاعرة قبلها مثل هذا الوعي للحقيقة والفهم لحركة التاريخ.  
مثلما نقرأ لها معبرة عن أحوال العصر تقول:  
يا زمان الصرف والنحو شبعنا عبثاً  
وكلاماً فارغاً..  
ووشايات نساء..  
أعطني سيفاً  
وخذ مني دواوين جميع الشعراء

والشاعرة سعاد الصباح لا تنسى حتى في انتمائها في خطابها  
الأنثوى هاجس الخوف من التلوث النفطى تقول:  
يا صديقى:

إن عصر النفط ما لوثنى  
ولا زعزع بالله اقتناعى  
أنت لو فتشت فى أعماق روحي  
لوجدت اللؤلؤ الأسود مزروعاً بقاعى

وتحكى سعاد الصباح عن أن الصوت الأنثوى كان خلال مرحلة  
تاريخية طويلة مرتبطاً بفكرة العار والعرض والشرف الرفيع حتى وصل  
الزمن ببعض الغلاة والمتزمتين إلى اعتبار صوت المرأة عورة لا يجوز أن  
يسمعه أحد.

### الاشتراكية العاطفية

لقد قاتلت المرأة طويلاً.. لاستعادة صوتها والخروج من مرحلة الخرس  
الطويلة حتى تمكنت من إعادة تشكيل حنجرتها بعد أن غطاها الصدا  
نتيجة لعدم التدريب وقلة الاستعمال.

وعلى الرغم من أنه فى بدايات هذا القرن بدأت المرأة تتخلص من  
الحجاب المفروض عليها وإفان الحجاب المفروض على صوتها لم يتزحزح  
سوى سنتيمترات قليلة! وظلت المرأة رغم انفتاح أبواب العالم والمعرفة  
أمامها لا تستطيع أن تعبر عما يدور بعالمها الداخلى.. فالمجتمع برغم  
كل التحولات التى طرأت على بنيته. يعتبر الصوت النسائى مؤامرة  
على دولة الرجال وسلطانهم.. ويعتبر المرأة الفضيحة ظاهرة شاذة أو

مرضية لا بد من معالجتها بالعقاقير والمضادات الحيوية..

هكذا ظل فم المرأة مغلقاً بالشمع الأحمر. وغير صالح إلا لارتشاف الماء ومضغ الطعام..

ولذلك أردت أن أحقق نوعاً من الاشتراكية العاطفية.. بعيداً عن أى فكر إقطاعى أو قبلى أو اضهادى.. وأن أسترد حقى الطبيعى كأنثى فى نقل مشاعرى إلى من أحبه دون أى شعور بالنقص أو الاضطهاد أو بالخروج على قواعد الأخلاق العامة.

فالحب الكبير لم يكن فى يوم من الأيام مناقضاً للقيم العليا والأخلاق فقالت فى قصيدتها:

فى بعض لحظات الوله

يخطر لى أن أجفف شعرك

وأنت بين يدى.. مستسلم لحنانى

وفى بعض لحظات الانخفاف

أحمل لك زجاجة-الشامبو

وأنتظر

حتى أعطيك الشعور

بأنك أحد الأباطرة

فى بعض لحظات الجنون يخطر لى أن أقبلك

ووجهك مغطى بصابون الحلاقة

أستعمل معجون أسنانك

مزرعة تعاونية واحدة.. وتقول:

أصعد إلى سقف القمر

لأقطف لك قمراً..  
أصعد إلى فضاءات  
لم تصعد إليها امرأة قبلي  
وأرتكب كلاماً عن الحب  
لم ترتكبه سيدة عربية قبلي  
ولا أظن أنها سترتكبه بعدى  
أتورط معك حتى نقطة اللارجوع  
وأمشي معك بلا مظلة  
تحت أمطار الفضيحة  
أذهب معك إلى آخر نقطة في اللغة  
وآخر نقطة في دمي  
حتى أستحق أن أكون حبيبتك  
أطير ألف سنة ضوئية  
وأحلق على ارتفاع ٣٢ ألف قدم  
حتى ألامس يديك  
مهمشة - محطة كقطار خرج  
عن قضبانه..  
فحاول أن تلتصق أجزائي

□□□

وتعيش الشاعرة سعاد الصباح أعمق لحظات الحزن عندما اختار الله  
طفلها «مبارك» إلى جواره.

فعبّرت بشعرها عن أحزانها تحت عنوان «سؤال».. فقالت:

رفاقتك الصغار يسألونني عن الخبر

شهر مرّ والمبارك ما ظهر

فإن أقلّ مسافر.. قالوا إلى متى سفر؟

قد أقبل الصيف على

شاطئنا وما حضر

وكان ديوان الرثاء العربي على مر العصور خاليًا من النواح والفجيجة عامرا

بامتداح المرثي وبوصف تأثير الموت على نفس الرائي..

وبمقدار ما برعت الشاعرة سعاد الصباح في الصراخ نعيًا وبكاء، فإنها

وقفت إلى حد النحيب وتجاوزت النحيب إلى مرحلة لغة الصمت الذي يهدس

بالحزن وينم عنه دونما تعبيرات خارجية.

وفى رثاء الشاعرة سعاد لطفها مبارك الذي غاب فجأة وذوى قبل الأوان

كما تنزوى الزهرة في فجر ميلادها وفي أوج تألقها، تحشد الشاعرة صورًا

ابتكرتها في ذاكرة الأمومة وذاكرة الأنوثة وذاكرة الإبداع.

وسعاد الصباح تشكل ظاهرة شعرية فريدة في نوعها، فمعظم الشعراء الذين

ولدوا عبر العصور وفي مختلف البقاع في أسر ملكية أو أرستقراطية لم يخرجوا

في شعرهم عن تقاليدهم شكلاً ومضموناً.. بل إن بعضهم كان ذا نظرة طبقية

أو عنصرية تفوح منها رائحة مخايل العنجهية والكبر.. وكان دفاعه عن دمه

الأزرق أو عن طبقته هو همه الأكبر الذي شغله عن وطنه وقومه.. ولم يكن

شعره محلاً لتغيير الأمر الواقع، بل كان تكريساً وتدعيمًا وتثبيتاً له فهو يرى

في التغيير اضطراباً وفي الثورة فوضى وانقلاباً على قيمه الأثيرة..

من هنا فإن الثورة الفريدة التي تميزت بها كل أشعار سعاد الصباح قد فجرت الكثير من الأفكار الثورية والقضايا القومية والمعاني الحضارية التي تجنبها شعراء آخرون لا يملكون ما يخافون على ضياعه.. بل إن ثورتها لم تقتصر على أبناء الوطن، حيث امتدت لتشمل رفاقها وزملاءها من الشعراء المحترفين والمرتزة.. غير عابئة بما يجره ذلك من خصومة وعداوات.. ففي وطنها الكويت يظن الجميع أن النفط هو مصدر كل الخيرات وبدونه لا تقوم للبلاد قائمة، لكنه في نظرها مصدر كل الكسل والتواكل والضياع والتراخي..

فتقول:

ثم حلت لعنة النفط علينا  
فاستبحنا كل ما ليس يباح  
فالبساتين فراش للهوى  
والنساء الأجنيات  
يعطرن ليالينا الملاح  
والدنانير على الأقدام ترمى  
وعلى الأجساد تصطف القداح  
هكذا يا وطني  
ترفع رايات الكفاح  
هكذا يبكي على الحائط سيف  
هكذا.. من يأسه يبكي السلاح  
كما قالت:

يا زمان القبح.. من أين يجيء المبدعون  
في بلادى..

وعلى أى صليب من دموع يولدون  
أعطني شبرا من الأرض يسمى وطننا  
ما به مشنقة.. أو مخبرون  
لا تغطه المنافى والسجون  
وصل السيف إلى الحلق  
وما زال لدينا شعراء يكتبون  
وصل السل إلى العظم  
وما زال لدينا شعراء يكذبون  
ويقولون على الأوراق.. ما لا يفعلون  
وقالت:

وطنى.. أصبحت لا أعرفه

هل هو البازار؟

والشيكات من غير رصيد

ودكاكين القمار؟

هل هو الشعب الكويتى الذى

تذبحه المافيات فى ضوء النهار؟

فاغضبى أيتها الأرض التى

ما شاركت فى الحرب إلا بالصراخ

والتى ما أنجبت من مخاض موجع

## غير فرسان (المنافخ)؟

وشعر سعاد الصباح ليس هجاء لمافيا العصر وأحوال الوطن بالأسلوب التقليدى ولكنه وعى عميق بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية، فهي حاصلة على الدكتوراه فى التنمية والتخطيط من جامعة سارى بإنجلترا، مما يمنح شعرها رحابة وعمقا وأبعادا لا تتأتى للشعراء الذين لا يعرفون من الشعر إلا نظم القوافى.. فقد طُعمت رؤيتها الشعرية بمعطيات العصر السياسية والاقتصادية فلمست نبض العصر وجسدت ضمير الأمة..

فتقول:

اغضبى

أيتها الأرض التى نامت طويلا

فى فراش من ذهب

اغضبى

أيتها الأرض التى تشرب بترولاً

وتبنى عرشها فوق الحطب

اغضبى

أيتها الأرض التى أسكرها المال

وأعماها البطر

إننى أرفض أن أعتبر النفط قدر

فأنا لا أعبد النار

ولا أرمى بأطفالي طعاماً للهب